خاتمة

فيما يتعلق بختم القرآن العظيم

اعلم أن الخاتمين للقرآن الكريم على ثلاثة أحوال:

فمنهم من كان إذا ختم أمسك عن الدعاء، وأقبل على الاستغفار، وهذا حال من غلب عليه الخوف من الله تعالى، وشهود التقصير في العمل، ولم يأمنوا من الآفات، وخشوا مناقشة الحساب، فأقبلوا على الاستغفار، وقنعوا بأن يخرجوا من العمل كفافاً لا لهم ولا عليهم.

ومنهم قوم كانوا إذا ختموا دعوا، وهو مروي عن ابن مسعود، وأنس وغيرهما، وهؤلاء قوم غلب عليهم شهود الربوبيةلله تعالى، وشهدوا من أنفسهم العبودية له تعالى، ووجدوا من أنفسهم الفقر، والفاقة، إلى ربهم، وعاينوا منه سعة الرحمة، وعموم الفضل، للمحسن والمسيء، وإسباغ النعم على المقبل، وعلى المدبر، فأطمعهم ذلك، وقوى رجاءهم في الله تعالى وعلموا أن القرآن الكريم شافع مشفّع، فلم يهلهم أمر ذنوبهم، وإن عظمت، فمدوا إلى الله تعالى يد المسألة، وتضرّعوا إليه وابتهلوا، وعلموا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، مع ملاحظة قوله تعالى (ادعوني أستجب لكم)[1](وإذا سألكعبادي عني فإني قريب)[2].

فكان دعاؤهم عبودية لله تعالى.

ومنهم قوم كانوا يصلون الخاتمة بالفاتحة، عوداً على بدء من غير فصل بينهما، لا بدعاءَ ولا بغيره لوجهين:

---

(١) سورة غافر آية (٦٠).

(٢) سورة البقرة آية (١٨٦).

أحدهما: ما رواه الترمذي من حديث أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله تعالى: « من شغله القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته، أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله تعالى على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ».

والثاني: ما في ذلك من التحقق، بمعنى الحلول والارتحال، في الحديث المروري من طريق عبد الله بن كثير عن « درباس » مولى ابن عباس عن عبد الله بن عباس عن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنهم عن النبي ـ ﷺ « أنه إذا كان قرأ قل أعوذ برب الناس افتتح من الحمد لله ثم قرأ من البقرة (وأولئك هم المفلحون) ثم دعا بدعاء الختمة، ثم قام ».

قال الحافظ ابن الجزري واسناده حسن.

و رواه أبو الشيخ، وروى فيه حديثاً مسلسلاً بالتكبير، وقراءة الفاتحة، وأول البقرة، وهي خمس آيات بالعدد الكوفي، وأربع في غيره، لأن الكوفي يعد (آلم) وحده، إلى ابن كثير عن النبي ﷺ.

قال في النشر: وصار العمل على هذا في أمصار المسلمين، في قراءة ابن كثير وغيرها، ويسمونه الحال المرتحل، أي الذي حل في قراءته آخر الختمة، وارتحل إلى ختمة أخرى، فلا يزال سائراً إلى الله تعالى.

وعكس بعضهم فقال: الحال المرتحل: الذي يحل في ختمة عند فراغه من الأخرى.

والأول أظهر، كما في النشر.

وأصل هذا الحديث في جامع الترمذي، من حديث صالح المزي، عن قتادة، عن زرارة، عن ابن عباس، قيل: يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله تعالى: ؟ قال: الحالّ المرتحل.

ورواه أبو الحسن بن غلبون، وزاد فيه« يا رسول الله ما الحال المرتحل »؟

قال: « فتح القرآن وختمه، صاحب القرآن يضرب من أوله إلى آخره، ومن آخره إلى أوله، كلما حل ارتحل ».

لكن الحديث تكلم فيه من جهة صالح المزي، وقطع بصحته أبو محمد مكي، وضعفه أبو شامة، وقال: إن مداره على « صالح المزي » وهو وإن كان عبداً صالحاً، فهو ضعيف، وفسر « الحال المرتحل » بالمجاهد كلما ختم غزوة افتتح أخرى.

وأجيب: بأنه ليس مدار الحديث على « صالح » بل رواه زيد بن أسلم وغيره، كما بينه بياناً شافياً حافظ الوقت، صاحب النشر.

قال: وقد روى الحافظ أبو عمرو الداني، بإسناد صحيح عن الأعمش، عن إبراهيم، قال: كانوا يستحبون إذا ختموا القرآن أن يقرأوا من أوله آيات.

وهذا صريح في صحة ما اختاره القراء، وذهب إليه السلف، وليس المراد لزوم ذلك، بل من فعله فهو حسن، ولا حرج في تركه.

ومنهم قوم يطعمون الطعام للفقراء، شكراً لله تعالى، على ما أولاهم من نعمة الختم، وهؤلاء قوم بسطتهم رؤية النعمة في الطاعة من الله تعالى، ففرحوا بها، وقاموا بشيء من واجب شكرها، وقد قال الله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا)[1].

فينبغي الجمع بين هذه الأربعة، فيصل الخاتمة بالفاتحة، ويتعرض لنفحات الله تعالى بالاستغفار، ثم الدعاء، ثم يطعم الطعام.

وأما ما اعتيد من تكرار سورة « الاخلاص » ثلاث مرات، فقال في النشر: إنه لم يقرأ به، ولا نعلم أحداً نص عليه من القراء، والفقهاء، سوى أبي الفخر « حامد بن علي بن حسنويه القزويني » في كتاب « حلية القراء » فإنه قال فيه: القراء كلهم قرأوا سورة الاخلاص مرة واحدة، إلا الهرواني ـ بفتح الهاء والراء ـ عن الأعشى فإنه أخذ

---

(١) سورة يونس عليه السلام آية (٥٨).

بإعادتها ثلاثاً، والمأثور مرة واحدة. قال : أعني صاحب النشر: والظاهر أن ذلك كان اختياراً من الهرواني، فإن هذا لم يعرف في رواية الأعشى، ولا ذكره أحد من علمائنا، وقد صار العمل على هذا في أكثر البلاد، عند الختم. والصواب ما عليه السلف، لئلا يعتقد أن ذلك سنة، ولهذا نص أئمة الحنابلة على أنه لا تكرر سورة الصمد، قالوا وعنه ـ يعنون « أحمد » لا يجوز. انتهى كلام النشر.

قيل: والحكمة فيه ما أورد أنها تعدل ثلث القرآن، فيحصل به ثواب ختمة.

فإن قيل: كان ينبغي أن تقرأ أربعاً، ليحصل ختمتان.

فالجواب: أن المراد أن يكون على يقين من حصول ختمة، إما التي قرأها، وإما التي حصل ثوابها بتكرير السورة، فهو جبر لما لعله حصل في القرآن من خلل. انتهى .

ثم إن الدعاء عند الختم سنة، تلقاها الخلف عن السلف، ويشهد له حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن ـ أو قال: من جمع القرآن ـ كانت له عند الله دعوة مستجابة، إن شاء عجّلها له في الدنيا، وإن شاء ذخرها له في الآخرة» رواه الطبراني، وكذا البيهقي، وقال: في إسناده ضعف.

وكان محمد بن إسماعيل البخاري ـ رحمه الله ـ إذا كان أول ليلة من رمضان اجتمع إليه أصحابه، فيصلي بهم، فيقرأ في كل ركعة عشر آيات، وكذلك إلى أن يختم القرآن، وكان يختم بالنهار كل يوم ختمة، ويكون ختمه عند الإفطار كل ليلة، ويقول « عند كل ختمة دعوة مستجابة ».

وعن حبيب بن أبي عمرة قال: «إذا ختم الرجل القرآن قبّل الملك بين عينيه ».

وعن مجاهد: « تنزل الرحمة عند ختم القرآن ».

وكان أنس بن مالك يجمع أهله وجيرانه عند الختم رجاء بركته.

وكان كثير من السلف يستحب الختم يوم الاثنين، وليلة الجمعة.

واختاره بعضهم وهو صائم، وآخر عند الافطار.

وللدعاء آداب كثيرة لا بأس بذكر شيء منها.

منها: بل أهمها: الإخلاص، بأن يقصد الله تعالى في دعائه لوجهه[1].

ومنها: تقديم عمل صالح من صدقة، أو غيرها.

ومنها: تجنب الحرام، أكلا وشرباً، ولبساً وكسباً[2].

ومنها: الوضوء لحديث فيه.

ومنها: استقبال القبلة لحديث فيه عن ابن مسعود.

ومنها: رفع اليدين، للحديث المشهور « إن ربكم » الخ وينبغي كشفهما حالة الرفع.

ومنها الجثو على الركب، والمبالغة في الخضوع لله تعالى، والخشوع بين يديه، ويحسن التأدب، مع الله تعالى.

وفي حديث ـ فيه ضعف ـ لكن له شاهد قوي: « أنه ﷺ كان إذا ختم القرآن دعا قائماً ».

وقد كان بعض السلف يدعو للختم وهو ساجد.

ومنها: أن لا يتكلف السجع في الدعاء، ففي صحيح البخاري ـ عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما « وانظر إلى السجع في الدعاء واجتنبه، فإني عهدت رسول الله ﷺ لا يفعل إلا ذلك، أي: الاجتناب.

ومنها: الثناء على الله تعالى أولاً وآخراً.

وكذا الصلوات على النبي ﷺ.

---

(١) ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾ غافر (١٤).

(٢) لحديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: تليت هذه الآية عند النبي ﷺ ﴿يأيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾ فقام سعد بن أبي وقال: فقال يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة. فقال: «يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة. والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً، وأيما عبد نبت لحمة من السحت والربا فالنار أولى به» رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه.

قال ﷺ « من قرأ القرآن وحمد الرب، وصلى على النبي ﷺ واستغفر ربه فقد طلب الخير من مكانه ». رواه البيهقي في الشعب وفيه أبان، وهو ضعيف.

ومنها تأمين الداعي والمستمع .

ومنها: أن يسأل الله تعالى حاجته كلها، حتى شسع نعله لحديث ابن حبان

ومنها: أن يدعو وهو متيقن الإجابة، يحضر قلبه، ويعظم رغبته .

ومنها: مسح وجهه بيديه بعد فراغه من الدعاء، لحديث فيه .

ومنها: اختيار الأدعية المأثورة، عن رسول الله ﷺ، فإن رسول الله ﷺ أوتي جوامع الكلم، ولم يدع حاجة إلى غيره، ولنا فيه أسوة حسنة.

وقد روى أبو منصور الأرجّاني عن داود بن قيس قال: كان رسول الله ﷺ يقول عند ختم القرآن:

«اللهم ارحمني بالقرآن العظيم، واجعله لي إماماً، ونوراً، وهدى، ورحمة، اللهم ذكّرني منه ما نسيت، وعلمني منه ما جهلت، وارزقني تلاوته آناء الليل والنهار، واجعله لي حجة يا رب العالمين ».

قال الحافظ ابن الجزري: وهذا الحديث لا أعلم ورد عن النبي ﷺ في ختم القرآن حديث غيره.

وقد كان ﷺ يحب الجوامع من الدعاء، ويدع ما سوى ذلك، رواه أبو داود من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها.

وكان من دعائه ﷺ : « اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى ».

« اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن، والهرم، والبخل، ومن عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وضلع[1] الدين، وغلبة الرجال».

« اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني ».

---

(١) «ضلع الدين» أي: ثقله. مختار الصحاح باب العين ، فصل الضاد.

(اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي ».

« اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير ».

« اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ونفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها ».

« اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني، وارزقني علماً ينفعني ».

« اللهم أصلح لي ديني، الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، والموت راحة لي من كل شر ».

« اللهم إني أسألك عيشة تقية، وميتة سوية، ومرداً غير مُخْزٍ ولا فاضح ».

« اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك آمين ».

« اللهم لا تدع لنا ذنباً إلا غفرته، ولا همّاً إلا فرجته، ولا دَيْناً إلا قضيته، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها يا أرحم الراحمين».

« اللهم لك الحمد وإليك المشتكى، وأنت المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ».

« اللهم إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة، فإنها بئست البطانة ».

« اللهم عافني في جسدي، وعافني في بصري، واجعله الوارث مني»،

« اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ».

« اللهم اجعل خير عملي آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك فيه ».

واختلف في إهداء ثواب الختمة ونحوها، للنبي ﷺ، فقيل: بمنعه، لعدم الإذن فيه، بخلاف الصلاة عليه، وسؤال الوسيلة له ﷺ، ولأنه تحصيل للحاصل، لأن له مثل أجر من تبعه.

وأجازه الشيخ أبو بكر الموصلي، قال: بل هو مستحب، وتبعه كثيرون، وهذا هو الراجح عندنا معاشر الشافعية، بل قال العلامة ابن حجر المكي: في باب « الإجارة » من شرحه لمنهاج النووي: « إن القول الأول وهم، وأطال في الاستدلال لأرجحية الثاني وحكى الغزالي عن ابن الموفق: أنه حج عن رسول الله ﷺ حججاً.

وذكر القضاعي أنها ستون حجة.

وذكر محمد بن إسحاق أنه ختم عن رسول الله ﷺ أكثر من ثلاثة عشر ألف ختمة، وضحى عنه مثل ذلك.

واستحب بعضهم أن يختم الدعاء بقوله: (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين)[1]. و (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله)[2].

واستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، مستعيناً به، متوسلاً إليه في ذلك، بنبيه سيدنا محمد ﷺ، وأسأله أن يسبل علينا ستره الجميل، وأن يعفو عني، وعن والدي، وأولادي، ومشايخي، وإخواني، والمسلمين، وأن يعطف علينا نبينا سيدنا محمداً ﷺ ويمن علينا بجواره في الحياة، وبعد الممات، مع رضاه عنا في عافية، بلا محنة.

وأن يجعل ما أعانني عليه من جمع هذا التلخيص خالصاً لوجهه، وأن ينفع به أهله، ويعرّفهم قدره، وأن يرحم به والدي كما ربياني صغيراً، وأستودع الله تعالى ديني، ونفسي، وجميع ما أنعم به علي، وأهلي، وأصحابي، والحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، حمداً يوافي نعمه، ويكافىء مزيده، يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، ولعظيم سلطانك، سبحانك لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

---

(١) ختام سورة «الصافات».

(٢) سورة الاعراف الآية (٤٣).

وصل أبداً أفضل صلواتك، على سيدنا عبدك، ونبيك، ورسولك، محمد وآله وسلم عليه ، تسليماً كثيراً، وزده تشريفاً وتكريماً، وأنزله المنزل المقرب عندك، يوم القيامة آمين.

وصل وسلم على جميع الأنبياء، وآل كل، وعلينا معهم، بعدد معلوماتك، آمين.